



مجلة الدراسات الإيرانية

دراسات وأبحاث علمية متخصصة

مجلة علمية ربع سنوية محكمة تصدر باللغتين العربية والإنجليزية

السنة الأولى - العدد الثاني - مارس 2017



مركز الخليج العربي
للدراسات الإيرانية
AGCIS

www.arabiangcis.org

مستقبل حراك الأقليات العرقية والدينية في إيران في ظل التحولات الإقليمية والدولية

د. كريم عبدان

كاتب متخصص في قضايا إيران والشرق الأوسط

يعود شكل الدولة الإيرانية المعاصرة إلى أوائل القرن السادس عشر الميلادي، تحديداً إلى عام 1501، وذلك مع تأسيس الدولة الصفوية على يد الشاه إسماعيل الصفوي. وفي الحقيقة لم تكن الدولة في تلك الفترة قائمة على قومية بعينها، بل كانت تتكون من أقاليم مختلفة ومجموعات عرقية غير متجانسة ومستقل بعضها عن بعض وتعيش دون أي ارتباط عضوي⁽¹⁾.

بالإضافة إلى الشعوب المختلفة التي كانت تعيش في هذه المنطقة كانت هناك ديانات مختلفة مثل المانوية والمزدكية والميتراية والزرادشتية قبل الإسلام، بقيت تعيش في هذه المنطقة حتى بعد الفتح الإسلامي وهزيمة الساسانيين على يد المسلمين العرب في معركة القادسية⁽²⁾.

لقد كانت هذه الأقوام والشعوب بمكوناتها العرقية واللغوية والدينية والثقافية مجموعات غير متجانسة ولم يكن بينها في أي مرحلة حتى ما قبل ظهور الصفويين أي انسجام، لا من الناحية التاريخية، ولا من الناحية السياسية⁽³⁾⁻⁽⁴⁾.

تركيبية الشعوب في إيران خلال التاريخ الحديث والمعاصر

شهدت إيران على مدار تاريخها الحديث والمعاصر الممتدَّ لخمسة قرونٍ حِقَبَيْنِ اتَّسَمَتَا بمحاولة إذابة العِرقِيَّات والقوميَّات المشكلة للشعب الإيراني داخل العِرقِيَّة الفارسيَّة، هما حِقْبَةُ الدَوْلَةِ الصَّفَوِيَّة (1501-1736) وحِقْبَةُ الدَوْلَةِ البَهْلَوِيَّة (1925-1979).

في عهد الدَوْلَةِ الصَّفَوِيَّة

لم يعرف الصَّفَوِيُّونَ أسلوبَ مشاركة الأَقْلِيَّات أو العِرقِيَّات المختلفة في نظام الحكم، ولم يستثنوا من اضطهادهم حتى الشِّيعة الآخرين كالمشعشين العرب الذين كانوا يحكمون في الحوزة في إقليم الأحواز الذي أطلق الصَّفَوِيُّونَ عليه تسمية «عربستان»، ومارسوا ضدَّهم القتل الجماعي، ومن ثَمَّ استطاعوا أن يسيطروا على مناطق واسعة تمتدُّ من بلاد ما بين النهرين حتى الخليج العربي في الجنوب وإلى الهند شرقاً.

في عهد الدَوْلَةِ البَهْلَوِيَّة

بعد الانقلاب العسكري الذي نفَّذه رضا بهلوي وقضائه على تجربة الحركة الدستورية، أنهى نظام الأقاليم والولايات الذي كان سائداً لعدة قرون في البلاد، ومعها بدأت مشكلة القوميَّات في إيران.

كان رضا شاه يسعى للقضاء على هذه القوميَّات وتوحيد إيران بأي ثمن وبكل ما يستطيع من قوة وبالسرعة الممكنة، فاعتمد في فرض حكمه وتثبيت سلطته على ثلاث مؤسَّسات رئيسية، هي على التوالي: مؤسَّسة الجيش ومؤسَّسة الجهاز البيروقراطي للدولة ومؤسَّسة النُّظام الملكي. ومن خلال هذه المؤسَّسات الثلاث بدأ رضا خان بتنفيذ برنامج طموح في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، بما يتماشى مع الطرح الذي كان يحلم به المنظرُّون القوميون العنصريون الفرس آنذاك⁽⁵⁾.

شهدت المرحلة الواقعة بين 1941 و1946 ثلاثة أحداثٍ رئيسية هامة، هي قيام حكومة أذربيجان الوطنية أو «جمهورية أذربيجان ذات الحكم الذاتي»، وقيام حكومة كردستان الوطنية أو «جمهورية مهاباد»، ومطالبة العرب في عربستان بالحكم الذاتي.

أوضاع القوميَّات في عهد الشاه رضا بهلوي وابنه من 1925 حتى 1979

بدأ حكم الشاه رضا بهلوي بتنفيذ مشروع القوميين الفرس المتطرفين بتبني مشروع الدَوْلَةِ الأُمَّة، وهو نسخة مشوَّهة لمشروع الدَوْلَةِ الأُمَّة في أوروبا في القرن التاسع عشر،

لأنه خلق كيانا سياسياً جديداً وهويّة جديدة لهذا الكيان، بعيدة كل البعد عن الوضع الذي كان قائماً قبل انقلابه.

وكان مشروع الدوّلة الأمّة الذي تبنّاه البهلوي متناقضاً تماماً مع المشروع الأوروبي الذي شكلت الديمقراطية أساسه، إذ قام نظام الشاه على مجموعة من القرارات تضمّنت تعديل بعض بنود الدستور الذي كان حصيلة الحركة الدستورية (ثورة المشروطة) وتعطيل بعضها الآخر.

وانتهى أمره إلى إفراغ الدستور من محتواه الأساسي، وانحصرت مهمّة البرلمان في التصديق على القرارات التي يُصدرها النظام تمهيداً لقيام دولة مركزية قوية قائمة على الاستبداد.

نظرية العرق الآري

لقد وُضعت نظرية التعصّب القومي والثقافي الإيراني «الفارسي» على فرضية تاريخية خاطئة، مفادها إن الحضارة في الأراضي الإيرانية هي من إبداعات الآريين دون سواهم، بالإضافة إلى تأكيدها وحدة الدم والعرق. وهذه النظرية تستثني العرب والأتراك في إيران لأنهم غير آريين، في حين تعتبر الأكراد والبلوش من الشعب الآري، وتؤكد الشواهد طبعاً أنه لم يُعثر في الأوابد التاريخية على أي أثر لهذا المصطلح بمعناه العرقي⁽⁶⁾.

دستور ضدّ القوميات

في 10 أكتوبر 1937 أُعيد النظر في التقسيمات الإدارية من جديد، فحُذفت الأسماء التاريخية القديمة للأقاليم الإيرانية من الخارطة القديمة وقُسمت إيران بموجب هذا القانون إلى ست محافظات، الشمالية الغربية، والغربية، والشمالية، والجنوبية، ومكران، والشمال الشرقي، وفي ديسمبر من نفس العام أُعيد النظر في هذه التقسيمات التي تمّت على أساس الجهات الجغرافية، وقُسمت البلاد إلى 10 محافظات و49 قضاءً و29 ناحية.

تعامل نظام الجمهورية الإسلامية مع القوميات

شاركت القوميات غير الفارسية بفاعليّة في ثورة الشعوب الإيرانية ضدّ نظام الشاه التي انتهت بسقوطه في عام 1979، وعقدت هذه القوميات آمالها على أن تنال حقوقها في ظلّ نظام جديد ينادي بقيم الإسلام المبنية على العدل والمساواة والحقوق لكل الشعوب بغضّ النظر عن عرقهم أو انتمائهم أو أصلهم.

لكن ما حصل هو العكس، إذ شنّ نظام الجمهورية الإسلامية الناشئ حملة قمع واسعة ضدّ عرب الأحواز المنتفضين في المحمرة، والتركمان في تركمن صحراء، والأكراد في غربيّ إيران، ورَدّ على مطالبهم بالحكم الذاتي والحقوق المتساوية بالإعدامات الجماعية للقادة التركمان وفتح النار على المتظاهرين في المحمرة واجتياح عسكري لكرديستان بفتوى جهاد من الخميني قائد الثورة ومؤسس الجمهورية الإسلامية.

وخلال السنوات الأخيرة أعادت الاحتجاجات المستمرة في إقليم أذربيجان شمال غرب إيران، للتمييز بإهانة التلفزيون الرسمي القوميّة التركية، قضية القوميات في إيران إلى الواجهة، وهكذا كانت انتفاضة العرب في 15 أبريل 2005 ضدّ ما عُرف بـ«وثيقة أبطحي»، معاون محمد خاتمي، الهادفة إلى تغيير النسيج السكاني للشعب العربي الأحوازي، إذ تتصاعد مطالب هذه الشعوب التي تشكّل أكثر من نصف سكان البلاد وتندّر بعواقب قد تصل إلى تفكك البلاد في حال عدم منح الحقوق الأساسية لهذه القوميات⁽⁷⁾.

واستمر نظام الجمهورية الإسلامية على نهج نظام الشاه رضا بهلوي وابنه، فأضاف هذا النظام شرط التشييع إلى هوية الدولة الفارسيّة، ومن ثمّ هيمنت الطغمة الحاكمة التي تؤمن بأيديولوجيا «ملي-مذهبي» أي «قومي-ديني» على السُلطة في إيران، وحُرمت الأقليات الدنيّة والقوميات غير الفارسيّة من أبسط حقوقها، وما زالوا معرّضين للإدماج القسري والانصهار وذوبان هويتهم.

نظرة أمنية تجاه قضايا القوميات

تنظر الدولة المركزية إلى مطالب القوميات برؤية أمنية ضيقة، تقترح غالباً حلولاً قمعية لتحركات أبناء هذه الشعوب. ويقول المحامي حسين رئيسي إن الأجواء المتأثرة بالنظرة الأمنية والمقرونة بالقمع الشديد الذي شمل جميع نشاط القوميات الإثنية والدينيّة جعلت «الحياة اليومية» لهذه الأقليات تواجه عديداً من المشكلات والصعاب، ويؤكد أن «التمييز غير المبرر ضدّ الأقليات، وبدعم من الدستور وعبر القوانين يُنفذ في عموم إيران، ممّا أدّى إلى تكريس ثقافة التمييز والعنف ضدّ جميع القوميات في إيران»⁽⁸⁾.

التمييز ضدّ الأقليات في الدستور

التمييز ضدّ الأقليات الدنيّة والقوميّة يبدأ من دستور الجمهورية الإسلامية، إذ يقول المحامي الإيراني حسين رئيسي، المدافع عن حقوق الإنسان، إن المادة 107 من الدستور

تنص صراحةً على منع أي شخص من أتباع الديانات والمذاهب الأخرى، بمن فيهم السنة، من الترشح لمنصب القائد أو لعضوية في مجلس الخبراء في إيران، وهذه المادة تُجيز فقط لعدد قليل من رجال الدين الشيعة وفي ظروف خاصة التمتع بهذا الحق. كما يُحرّم باقي الأقليات الدينية والمذهبية من تبوؤ جميع المناصب السياسية والقضائية والرئاسية، على سبيل المثال أن يكون رئيس الجمهورية من بين الرجال الشيعة المتدينين السياسيين، إذ نصّت الفقرة 5 من المادة 115 على يكون رئيس الجمهورية مؤمناً ومعتقداً بمبادئ جمهورية إيران الإسلامية والمذهب الرسمي (الشيعة) للبلاد. كما ورد في قسم من المادة 121 من الدستور المتعلقة بأداء القسم الخاص برئيس الجمهورية الإسلامية «كونه حامياً للمذهب الرسمي» فقط⁽⁹⁾.

أما تكريس التمييز ضدّ الأقليات القومية في الدستور فيتمثل في الحرمان من اللغة الأم في المدارس والجامعات والنشر والإعلام، كما أن من نتائج سيطرة اللغة الفارسية وعدم الاهتمام باللغات المحلية أيضاً تدمير واضمحلال الآداب والثقافة والموسيقى لهذه القوميات⁽¹⁰⁾.

مستقبل حراك الأقليات في إيران

رغم أن إيران تعدّ من بين أكثر بلدان الشرق الأوسط من حيث التنوع القومي، فإن الحكومات الإيرانية المتعاقبة على الحكم تعمّدت إخفاء هذه الحقيقة، بخاصة من خلال جهاز استخبارات نظام الشاه «السافاك» الذي عمل كثيراً على سياسة التعتيم هذه⁽¹¹⁾، كما أن التيار القومي الفارسي العنصريّ يحاول هو الآخر إنكار هذه الحقيقة، لذا لم يقدموا أيّ دراسة جدية حول القوميات في إيران⁽¹²⁾.

إلا أنه مع تنامي الثورة المعلوماتية والعولمة وارتقاء الوعي القومي اليوم لدى الشعوب غير الفارسية المهمّشة والمُبعّدة من المشاركة في اتخاذ القرار السياسي أصبح إخفاء حراك هذه القوميات والأقليات أمراً مستحيلًا.

أما الحقيقة الأخرى في هذا الصدد فهي أنه بعد 38 عاماً من عمر الجمهورية الإسلامية وجهود المعارضة من أجل إسقاط نظام ولاية الفقيه، ثبت أن إسقاط هذا النظام وتغييره لا يمكن تحقيقه دون مشاركة جميع مكونات المجتمع، وعلى رأسها القوميات والأقليات المضطّهدة، وأن أيّاً من هذه الشعوب في إيران لا يستطيع تغيير النظام بمفرده مهما امتلك من إمكانيات⁽¹³⁾.

وتبين لنا خلال 38 عامًا أن جميع محاولات المعارضة في تغيير النظام فشلت، وهنا لا بد لنا من ذكر نموذجين من هذه المحاولات:

أولاً: عمليات ما يُعرف بـ«فروغ جاويدان» أي «الضياء الخالد»، وهي معركة خطّطت لها منظمة «مجاهدي خلق» عام 1988، وقد بدأت بهجوم واسع شنّته المنظمة عبر الحدود الغربية مع العراق، ورغم الضعف الشديد الذي كان يعاني منه الجيش الإيراني آنذاك نتيجة الحرب مع العراق، التي دامت 8 سنوات، فإنه بعد عدة أيام من المعارك خسر «مجاهدو خلق» المعركة وقُتل منهم كثير وفشلت الخطة.

ثانياً: انتفاضة حزيران الجماهيرية عام 2009 التي عُرفت في حينها بـ«الحركة الخضراء»، والتي اشترك فيها أكثر من 3 ملايين مواطن في طهران، والتي انتهت هي الأخرى بالفشل.

وعلى الرغم من كل التضحيات والشجاعة التي أبداها مقاتلو «مجاهدي خلق»، أو منتفضو «الحركة الخضراء»، فإنهم لم يشيروا في تحليلاتهم إلى أسباب فشل مشروع إسقاط النظام أو تغييره إلى أن السبب الرئيسي -من وجهة نظري- الذي أدّى إلى فشل المحاولة، هو عدم مشاركة الشعوب غير الفارسية بصورة منظمة وفعّالة في هذين الحادثين، فلم يكثر قادة الحركتين بدور الشعوب واتّسع رقعة المواجهة مع النظام إلى الأقاليم التي تقطنها القوميات.

إن عدم اتّسع رقعة الانتفاضة الخضراء وتمركزها في العاصمة طهران، سمح للنظام بأن يجمّع قواه وأن ينتصر عليها، وكذلك حدث مع «مجاهدي خلق» إذ ركزوا على قواهم الذاتية ولم يُشركوا القوميات المضطّدة في الحراك ضدّ النظام. وعليه نرى أن الطريق الوحيد لانتصار أي حركة في المستقبل يتم بالضرورة عبر التنسيق العام وإعلان العصيان المدني في المدن الكبرى مثل طهران وتبريز، مع أقاليم القوميات التي تشهد حراكاً واسعاً مثل إقليم كردستان وعربستان (الأحواز) وبلوشستان وإقليم تركمن صحراء. إن تزامن التحرك من شأنه أن يضعف النظام بشدة ويجبره على توزيع قواه وإرسالها إلى هذه المناطق، وسوف يؤدي هذا الأمر إلى تشتت قواه ويضعفه إلى أبعد الحدود، وإن قوى النظام الحالية لن يكون بمقدورها إطلاقاً أن تنتشر في هذه المساحات الشاسعة، وإن تجارب نهوض الشعوب في الاتحاد السوفييتي السابق لخير دليل على ذلك⁽¹⁴⁾⁻⁽¹⁵⁾.

مستقبل حراك القوميات كقوة تغيير

يُعتبر حراك القوميات إحدى أهم قوى التغيير في إيران، نظراً إلى اتساعه وتوسُّع نشاطه، بخاصة خلال نحو عقد ونصف مضيًا. وتأتي هذه القوة لا من العمليات العسكرية المحدودة التي ينفذها بعض تنظيمات القوميات، بل من القوة الناعمة والحراك الشعبي القوي على الأرض، التي تتحدّى القمع والاضطهاد. وبدأ هذا الحراك يشبه - إلى حد كبير - ما حدث في دول أوروبا الشرقية من ثورات مخملية ضد الأنظمة القمعية⁽¹⁶⁾.

من أدوات القوة الناعمة مقارعة النظام الإيراني في المحافل الدولية، بخاصة في ملفّ حقوق الإنسان، الذي يشكل «كعب أخيل» للنظام الإيراني في المحافل الدولية، لأن للنظام الإيراني سجلاً أسود في الانتهاكات ضدّ مختلف مكونات الشعب الإيراني من الشعوب غير الفارسية أو الأقليات العرقية والدينية، وهو ملفّ مطروح بقوة على أجندة الأمم المتحدة ومجلس حقوق الإنسان.

هذه الانتهاكات موثقة لدى المنظمة الدولية، لكن النشاط الإيراني وحلفاءه ولوبياته ونشاطهم الحثيث والذكي من جهة، وغياب التحرك العربي من جهة أخرى، حالاً دون إرسال الملفّ إلى مجلس الأمن رغم صدور قرارات إدانة أممية عديدة ضدّ إيران⁽¹⁷⁾.

على سبيل المثال يمكن طرح قضية التطهير العرقي ضدّ الشعب العربي الأحوازي والاستناد إلى كثير من الأدلة، منها التقرير الذي أعده ما يُسمّى «لجنة حقوق الإنسان في السُلطة القضائية الإيرانية» حول القوميات والأقليات، الذي حذف اسم عرب الأحواز عندما ورّعته بعثة إيران في الأمم المتحدة في أعمال الدورة التاسعة للمنتدى المعني بقضايا الأقليات بالأمم المتحدة الذي عُقد يومي 24 و25 نوفمبر 2016 في مقرّ مجلس حقوق الإنسان بجنيف⁽¹⁸⁾.

حراك القوميات والمعارضة الإيرانية

لا يزال مُعظم قوى المعارضة الإيرانية يتجاهل حراك القوميات وأنّ مُعظمها لم يستطع أن يتخلص من ترسُّبات الخطاب المعادي للقوميات.

وعلى الرغم من أن مشاركة القوى الفارسية التي تناضل من أجل تغيير النظام الديكتاتوري أمر مصيري لكن نقطة الضعف الأساسية لهذه القوى تكمن في انقسامها

وتَشَتُّتها وعدم انسجامها من جهة، وعدم ثقة قسم كبير منها بحركات الشعوب غير الفارسيَّة وعزوفها الدخول في تحالف معها من أجل إيجاد ائتلاف شامل، من جهة أخرى، بالإضافة إلى تدخُّل نظام الملالي وشراء ذِمَم كثير من تيارات المعارضة لأسباب ماديَّة وعقديَّة.

أما حَرَكَ القوميات نفسها، فعلى الرغم من أنه في تصاعد مستمر كما أسلفنا، فإنه في نفس الوقت يعاني بعض نقاط الضعف، بخاصَّة في ما يتعلق بموضوعات طرح المطالب المرحلية حول حقِّ تقرير المصير، إذ تنقسم الحركات القوميَّة في الاستراتيجية والتكتيكات حول تحقيق المطالب واسترجاع الحقوق المنتهكة بين دعاية الانفصال وتشكيل دول مستقلة، ومن يروُّن وجوب قيام حكم لا مركزي فيدرالي على أنقاض نظام الملالي، يمكنهم من ممارسة حقِّ تقرير المصير.

وبإلقاء نظرة على واقع الحركات القوميَّة يمكن أن نُجمل نقاط الضعف والقوَّة لدى مختلف تيارات الشعوب غير الفارسيَّة في ما يلي:

1- الأتراك الأذربيجانيون (الأذريُّون): تكمن قوتهم في كثرة عدد سكانهم لأنهم أكبر قوميَّة في إيران، بالإضافة إلى سيطرتهم على «البازار»، أي اقتصاد السوق، ونفوذهم في الجيش والحرس الثوري ومؤسَّسات الدوِّلة، كما لديهم فئة مثقفة واسعة وتجربة نضالية تاريخية طويلة منذ الحركة الدستورية⁽¹⁹⁾ حتى الوقت الراهن.

إلا أن نقاط ضعف الأتراك في إيران تكمن في فقدانهم تنظيمات قوميَّة قوية وتشتت صفوفهم وعدم وجود قيادة سياسية منسجمة لديهم. كما أنهم قياساً بالشعوب الإيرانيَّة الأخرى يعيشون نوعاً من الرفاه المعيشي والاقتصادي النسبي. وبما أن كثيراً منهم يسيطر على اقتصاد السوق، فإن خوفهم من فقدان هذه الامتيازات تدفعهم إلى عدم التفكير أو طرح مطلب الانفصال أو الاستقلال أو حتى تقسيم السُّلطة والثروة. كما أن النُّظام يحاول استمالتهم بشتى الطرق، مثل السماح لهم بتشكيل تكتُّل في مجلس الشورى (البرلمان) من قبل نحو 100 نائب من المناطق التركية في إيران.

النقطة الأخرى التي تُضعف نضال الأتراك بوجه النُّظام الإيراني تكمن في خلافاتهم التاريخية مع الأكراد حول الحدود الإدارية لإقليمي أذربيجان وكردستان حيث يتنازع الطرفان حول بعض المناطق المختلطة بالسكان الأتراك والأكراد أو بعض المدن والقرى

ذات الأغلبية الكردية في حدود محافظات إقليم أذربيجان أو مناطق يقطنها الأتراك في مناطق تتبع كردستان إدارياً، وتساعد هذه الخلافات من شأنه أن يؤدي إلى حرب أهلية، ومن ثمّ إضعاف الجبهة المعادية للنظام.

2- الأكراد: يُعتبر الشعب الكردي من الناحية التنظيمية من أكثر الشعوب الإيرانية تجربة، ولديهم تاريخ نضالي طويل، بالإضافة إلى وجود انسجام تنظيمي وقيادة قوية نسبياً، وإن كانوا يتوزعون على عدد من الأحزاب، إلا أن الغالبية العظمى من الشعب الكردي ملتفة حول هذه الأحزاب التي لا يتجاوز عددها أصابع اليد. وقد دخل بعض هذا الأحزاب، على رأسها الحزب الديمقراطي الكردستاني الإيراني (التنظيم الأم لكل الأحزاب الكردية)، في الوقت الراهن في صراع مسلح مباشر مع النظام، كما أن حركتهم تحظى بدعم دولي.

النقطة الأخرى المهمة التي تميّز الشعب الكردي في إيران هي أن الغالبية العظمى منهم على مذهب أهل السنة، وهذه الخصوصية تميزهم مذهبياً وثقافياً من الشعب الفارسي الشيعي.

غير أن ضعف الأكراد يكمن في ترابطهم وقربهم العرقي واللغوي مع الفرس، لأن معظم مثقفي الشعبين يعتبرون أنفسهم من الآريين، ويضعون أنفسهم في مواجهة الشعوب الأخرى غير الآرية، وبخاصة العرب والأتراك. ومن هذه الناحية كان الفرس دائماً يحاولون كسب الأكراد وبناء تحالفاتهم معهم على أساس خطاب تفوق العرق الآري على باقي شعوب المنطقة.

3- عرب الأحواز: باعتراف عديد من المؤرخين الفرس، قطن الشعب العربي في أرض الأحواز منذ آلاف السنين، وإلى قرون لما قبل الإسلام، على عكس ما يروج له الخطاب العنصري المتشدد من أن الوجود العربي في الأحواز حديث ويعود إلى حقبة دخول الإسلام إلى إيران⁽²⁰⁾.

تكمّن نقاط القوة لدى الأحوازيين أولاً في وجود عمق قومي وثقافي لديهم هو العمق العربي، وتزايد وقوف ودعم الشارع العربي لنضالهم رغم استمرار تجاهل الأنظمة الرسمية العربية لقضية الأحواز.

كما أنهم السكان الأصليون للإقليم الذين كان لديهم إمارة شبه مستقلة حتى إسقاط آخر حاكم لها (الشيخ خزعل بن جابر الكعبي) عام 1925.

وبشكل الوعي القومي لدى الأحوازيين أكبر عامل لاستمرار نضالهم، بالإضافة إلى اتّساع رقعة نشاطهم داخلياً وإقليمياً ودولياً، وبدء إبراز قضيتهم أكثر من ذي قبل بخاصّة في ما يتعلق بالممارسات القمعية التي تنتهجها الحكومات الإيرانية المتعاقبة التي تحاول إنهاء الوجود العربي في الإقليم بمخطّطات التغيير الديموغرافي والتهميش والإفقار والتهجير وطمس معالم التراث والهويّة والثقافة العربية.

أما نقاط الضعف الأساسية التي كانت دوماً -ولا تزال- تعرقل حراك الشعب العربي الأحوازي والتجاوب الدولي معه فهي وجود النّفط الذي يقولون عنه إنه أصبح نقمة عليهم بدل أن يكون نعمة لهم.

وفي هذا الصدد يقول الباحث الأمريكي الشهير وليام سترونغ، في كتابه «حكم الشيخ خزعل وسقوط إمارة عربستان»، إنه في عام 1908 مع اكتشاف النّفط في عربستان (الأحواز) كان 98% من سكان المنطقة عربياً.

واليوم على الرغم من مخطّط التفريس والتهجير الذي مارسته الأنظمة الإيرانية الشاهنشاهية والجمهورية الإسلامية، لم تستطع تغيير الواقع الديمغرافي على الرغم من أنها أوصلت نسبة المهاجرين والمستوطنين إلى نحو 30%.

ومن أسباب تخلف المجتمع العربي الأحوازي ارتفاع معدّلات الفقر والبطالة والامية بنسبة أكبر بكثير من باقي القوميات بسبب سياسات التمييز والتهميش، الأمر الذي أدّى إلى تصعيد الخطابات المنادية بالعنف وضرورة المواجهة المسلّحة للنظام الإيراني، رداً على هذه السياسات الجائرة، ممّا أضعف الحراك السلمي الديمقراطي الجماهيري الذي أقضّ مضاجع النّظام خلال العقدين الأخيرين على الأقلّ.

كذلك فلدى الأحوازيين تشبّثاً على مستوى القوى السياسية وعدم امتلاكهم استراتيجية طويلة الأمد. ويعتقد بعض الباحثين أن اشتراك الغالبية من سكان الأحواز في العامل المذهبي (الشيوعي) مع الفرس من أهمّ المعوّقات التي يعاني منها الشعب العربي في نضاله ضدّ النظام الإيراني⁽²¹⁾.

4- **البلوش:** يعاني البلوش في إيران اضطهاداً مزدوجاً، قومياً مذهبياً، لكونهم من أهل السنة، كما أنهم يعانون أعلى معدلات الفقر والحرمان والتخلف وانعدام التنمية على الإطلاق. ما يعطي نضال البلوش قوّة هورابطتهم العرقية وعلاقاتهم الوطيدة مع أشقائهم البلوش في باكستان حيث يتمتعون بالفيدرالية، وأيضاً في أفغانستان حيث يشكل ذلك عمقاً استراتيجياً ولوجستياً لتحركهم، كما أن لديهم عمقاً في دول الخليج العربي لأن عديداً منهم موظفون كبار ورجال أعمال ومسؤولون في عدد من دول الخليج. أما نقطة ضعف البلوش فتكمن في ارتفاع معدلات التخلف الثقافي والاجتماعي والأمية وفقدان الأحزاب السياسية (عدا بعض الأحزاب في الخارج) وعدم وجود استراتيجية مستقبلية تؤطر نضالاتهم.

كما أن هناك حضوراً نشطاً لبعض الحركات السلفية التي تؤكد العامل الديني، الأمر الذي أعطى النظام الإيراني ذريعة لشنّ حرب إعلامية واسعة وقوية ضدّ نضال الشعب البلوشي. ورغم ادعاءات مثقفي الفرس بانتفاء البلوش إلى العرق الآري، فإنهم يختلفون عنه في المذهب واللغة.

5- **التركمان:** على الرغم من أن عددهم بالنسبة إلى القوميات الأخرى قليل جداً فإنهم بسبب ارتباطهم الوثيق مع جمهورية تركمانستان يمتلكون وعياً ثقافياً عالياً، ويرتبطون قومياً بتركمان العراق أيضاً، وكذلك بأقلية الإيغور في الصين، إذ يشكلان عمقاً استراتيجياً ولوجستياً لنضالاتهم، كما أن أراضيهم الزراعية الخصبة تمنحهم القدرة على الاكتفاء الذاتي.

أما نقطة ضعف التركمان فتكمن في كونهم محاصرين بعدة محافظات فارسية، بالإضافة إلى فقدانهم تجربة التنظيم السياسي، وأن كانوا في طليعة المناضلين ضدّ تشكيل نظام الجمهورية الإسلامية في إيران بعد انتصار الثورة، لكن ما يميّزهم أيضاً أنهم لا يرتبطون لا بعامل اللغة ولا بعامل المذهب مع المركز لكونهم سنة.

6- **اللور والبختيارية:** قبائل اللور والبختيارية بسبب وجودهم تاريخياً في منطقة جبلية فإنهم حافظوا على نسيجهم القومي، وخلال السنوات الماضية ازداد لديهم عدد المتعلمين والمثقفين في أوساطهم، وكانوا في عهد حكم الشيخ خزعل يرتبطون معه بروابط حسنة⁽²²⁾.

أما نقاط ضعف اللور والبختيارية فأهمها تكمن في شراء النظام ذمم كثير منهم، مما يشكّل طابوراً خامساً في المناطق العربية، وذلك عبر نفوذهم في المؤسسات الأمنية والجيش والحرس الثوري.

كذلك يمنحهم النظام امتيازات مادية وسياسية باعتبارهم ينتمون إلى العرق الآري، ويستخدمهم في مخطّط التغيير الديموغرافي في إقليم الأحواز، حيث يهجر الجنرال محسن رضائي، أمين مجلس تشخيص مصلحة النظام والقائد السابق الثوري الإيراني الذي ينتمي إلى البختياريين، عدداً كبيراً من اللور والبختياريين من مناطقهم، ويسكّنهم في وسط الأحياء والمدن العربية، كما سلب، بمساعدة الحكومة، الأراضي الزراعية والسكنية العربية ومنحها لهم.

إن إقحام اللور والبختيارية أنفسهم أداة لتنفيذ مخطّط التغيير الديموغرافي الذي تستمر فيه الحكومة المركزية في إقليم الأحواز يُنذر بوقوع حرب أهلية مستقبلاً بينهم وبين العرب.

التحوّلات الإقليمية والدولية وانعكاساتها على قضايا القوميات

يرى باحثون أن وجود النّفط أحد الأسباب الرئيسية في إهمال وتجاهل البلدان الغربية مطالب القوميات والشعوب غير الفارسية في إيران. ومن الناحية التاريخية فإن الشركات النفطية الكبرى، لاعتبارات اقتصادية وللحفاظ على إيران كسوق استهلاكية، فضّلت التعامل مع حكومات مركزية قوية بعينها بدلاً من التعامل مع عدد من الدويلات⁽²³⁾. لهذا حافظت الدول الغربية بحزم على وحدة إيران وعدم تجزئتها، وقد حصل ذلك كله لاعتبارات اقتصادية بحتة. من جهة أخرى، فإن احتمال عدم الاستقرار والفوضى الأمنية بسبب الموقع الجيو-استراتيجي للبلد، ومن أجل الحفاظ على مصالح الاقتصاد، يجعل هذه الدول تعارض أي دعوة لتفكيك إيران.

وفي الاجتماعات التي حضرها كاتب هذه الدراسة مع الوزارات الأمريكية المعنية، بخاصة وزارة الخارجية، تُبين لنا أن رؤساء الولايات المتحدة، سواء في عهد كلينتون أو بوش أو أوباما، يعارضون أي دعوة من القوميات الإيرانية لتقسيم إيران.

بالإضافة إلى ما ورد فقد لمس الكاتب في أثناء لقاءاته مع قادة البرلمان الأوروبي في بروكسل، أن رؤساء دول الاتحاد الأوروبي أيضاً يشترطون الدفاع عن حقوق القوميات وعن نضالاتهم الوطنية بعدم طرح هذه القوميات مطلب الاستقلال في إيران. أما بلدان المنطقة فإنها بسبب وجود الأقليات القومية والإثنية واللغوية والدينية، ليست هي الأخرى على استعداد لدعم حقوق قوميات الشعوب الواقعة تحت الاضطهاد القومي في إيران علناً.

الاستنتاجات

بناءً على ما تقدّم، نرى أن الورقة الراحبة التي تحتلُّ سُلّم الأولويات لدى القوميات هي أن تثبت للمجتمع الدولي أنه في حال تغيير السُّلطة في إيران تستطيع أن تتعايش في ما بينها سلمياً، وبأنها سوف تتصدى لأي نوع من عدم الاستقرار. وفي الوقت نفسه يجب أن تطرح بديلاً للأمر، أي توزيع السُّلطة بين المركز والأطراف للحيلولة دون قيام أي حكم ديكتاتوري في إيران مستقبلاً، وهذا ما سيقضي على أحلام نظام ولاية الفقيه في بناء حكم إمبراطوري شيعي.

وفي الحقيقة يمكن أن تكون تجربة تعايش مختلف الشعوب في الهند نموذجاً يقتدي به الشعوب والقوميات في إيران، وكذلك لحلّ المشكلة القومية المزمّنة في إيران، وهو ما من شأنه أن يضع في المستقبل حداً للتوترات الإقليمية ولمغامرات نظام الجمهورية الإسلامية التوسّعية في المنطقة.

إضافةً إلى ذلك، فإن الشعوب غير الفارسية يجب أن تطالب بضمان دستوري لإرساء نظام لا مركزي فيدرالي قوي شبه مستقل كحدّ أدنى لمعالجة عدم المساواة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في إيران، وتعلن إنها غير مستعدة للتراجع عن هذا المطلب لأنه يأتي في إطار التدابير اللازمة لضمان استمرارية الديمقراطية والتعايش السلمي بين جميع القوميات بما فيها القومية الفارسية نفسها.

الهوامش والمراجع

- (1) Ethnic Identity Crisis in Iran: Dr. Ali Al-Taie, Shadegan Publication, Tehran 1999 p-165
- (2) عزيز الله بيات، از عرب تا دياله، نشر گنجينه، تهران، 1984، ص2
- (3) Alireza Asgharzadeh, Iran and the Challenge of Diversity, Islamic Fundamentalism, Aryanist Racism, and Democratic Struggle New York, Palgrave2007 pp-8
- (4) Nike R. Keddie, Modern Iran, Roots and Results of Revolution- New Heaven & London, Yale University Press 2003 P2
- (5) محمد قاسمي، شش سال از انقلاب مشروطه، انتشارات حزب توده " توفان "، 1974م، ص8
- (6) ناصر پور پيرار، 12 قرن سكوت، كتاب أول، نشر كارنك، تهران، 1379، ص87.
- (7) الاحتجاجات القومية.. حقوق الشعوب أم تفكك إيران؟، صالح حميد، العربية.نت، متاح على الرابط: <http://ara.tv/m4xvd>
- (8) حسين رئيسي، التمييز ضد القوميات والأقليات الدينية في دستور الجمهورية الإسلامية الإيرانية، ترجمة جابر أحمد، متاح عبر موقع الحوار المتمدن: <http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=397321>
- (9) راجع دستور الجمهورية الإسلامية الإيرانية، متاح عبر الرابط: <https://goo.gl/zEDBHY>
- (10) حسين رئيسي، نفس المصدر.
- (11) Keddi, p 113
- (12) Joya Blondel Saad, The Images of Arabs in Modern Persian Literature, University Press of America, Maryland, p3
- (13) Manifesto, Congress of Nationalities for a Federal Iran <http://www.iran-federal.org>
- (14) NYT Opinion 31988/14/ Soviet nationalities seeking autonomy <https://goo.gl/M5I60G>
- (15) The challenge of Russian nationalism to soviet stability <https://goo.gl/e93Fe4>
- (16) Peter Ackerman and Jack Dual, A force More Powerful, a century of nonviolent conflict, palgrave,,2000 NYC, p 494
- (17) انظر مقال الكاتب في صحيفة الشرق الأوسط: كريم عبيدان بني سعيد عبيدان، على العرب استخدام القوة الناعمة في الصراع مع إيران، 11 فبراير 2016، متاح عبر الرابط: <https://goo.gl/rgFHSP>
- (18) Ahmad Bina, Supervisor Iran High Council for Human Rights, Center of The Press and Publication of the Judiciary, Tehran 2016 <http://ar.ahwaznews.tv/201612//AhwazUN.html>
- (19) Mostafa Ansari: The History of Khuzestan, 18781925-, PhD Dissertation, University of Chicago, Chicago, Illinois 1974p1
- (20) Mostafa Ansari: The History of Khuzestan, 18781925-, PhD Dissertation, University of Chicago, Chicago, Illinois 1974p1
- (21) Joya Blondel Saad, The image of Arabs in Modern Persian Literature, University Press of America New York and London p-5
- (22) William TH Srrunk, The Reign of Shaykh Khaz» Ibn Jaber and the Suppression of the Principality of Arabistan: A Study of British Imperialism in Southwestern iran PhD Dissertation, 1977 University of Indianap-124
- (23) Vali Nasr, The Shia Revival, How Conflict Within Islam Shape the Future, W.W. Norton company, New York 2006 P212